

٥١ - سورة الذاريات

مكية وآياتها ستون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوجًا﴾ ١ ﴿فَالْمُتَلَوِّتِ وَفُرًا﴾ ٢ ﴿فَالْمُتَرَبِّتِ يَتَرَفَّعُ﴾ ٣ ﴿فَالْمُغْبِطَاتِ حَمْلاً﴾ ٤ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ﴾ ٥ ﴿وَأَنَّ﴾ ٦ ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ عَذَابَ اللَّهِ كَبُورًا﴾ ٧ ﴿إِنَّكَ لَنَاصِرٌ لَّهُمْ﴾ ٨ ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كِبَارُهَامِهِمْ وَلَا يَنْفَعُهمُ شُرَكَاءُهمُ﴾ ٩ ﴿إِنَّمَا هُمْ كَلْبُومٌ﴾ ١٠ ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرُوهمُ سَاهُونَ﴾ ١١ ﴿يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الَّذِي يَوْمَ الَّذِي يَوْمَهمُ عَلَى النَّارِ يَفْتَنُونَ﴾ ١٢ ﴿ذُوقُوا فَنَّتَكمُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُسْتَعْمَلُونَ﴾ ١٣ ﴿

قوله تعالى: ﴿والذاريات ذروراً﴾ قال علي رضي الله عنه: الریح، ﴿فالحاملات وقرأ﴾ قال: السحاب ﴿فالجاريات يسراً﴾ قال: السفن ﴿فالمقسمات أمراً﴾ قال: الملائكة^(١).

وقد روي عن سعيد بن المسيب قال: جاء صبيغ التميمي إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن الذاريات ذروراً، فقال رضي الله عنه: هي الرياح، ولولا أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول ما قلته، قال: فأخبرني عن المقسمات أمراً، قال رضي الله عنه: هي الملائكة، ولولا أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول ما قلته، قال: فأخبرني عن الجاريات يسراً، قال رضي الله عنه: هي السفن، ولولا أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول ما قلته^(٢). وهكذا فسرها ابن عباس وابن عمر وغير واحد، ولم يحك ابن جرير غير ذلك، وقد قيل: إن المراد بالذاريات (الريح) وبالحاملات وقرأ (السحاب) كما تقدم لأنها تحمل الماء، فأما (الجاريات يسراً) فالمشهور عن الجمهور أنها السفن تجري ميسرة في الماء جرياً سهلاً، وقال بعضهم: هي النجوم تجري يسراً في أفلاكها، ليكون ذلك ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك، والمقسمات أمراً، الملائكة فوق ذلك تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية، وهذا قسم من الله عز وجل على وقوع المعاد، ولهذا قال تعالى: ﴿إنما توعدون لصادق﴾ أي لخبر صدق، ﴿وإن الدين﴾ وهو الحساب ﴿لواقع﴾ أي لكائن لا محالة، ثم قال تعالى: ﴿والسماوات الحبيكة﴾ قال ابن عباس: ذات الجمال والبهاء، والحسن والاستواء^(٣)، وقال الضحاك: الرمل والزرع إذا ضربته الریح فينسج بعضه بعضاً طرائق طرائق، فذلك الحبيكة، وعن أبي صالح: ﴿ذات الحبيكة﴾ الشدة، وقال خصيف: ﴿ذات الحبيكة﴾ ذات الصفاقة، وقال الحسن البصري: ﴿ذات الحبيكة﴾ حبيكت النجوم، وقال عبد الله بن عمرو: ﴿والسماوات ذات الحبيكة﴾ يعني السماء السابعة. وكأنه - والله أعلم - أراد بذلك السماء التي فيها الكواكب الثابتة. وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد وهو الحسن والبهاء، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما فإنها

(١) روي من غير وجه عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه صعد منبر الكوفة فقال: لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى ولا عن سنة رسول الله ﷺ إلا أنبأتكم بذلك، فسأله ابن الكواء عن قوله تعالى: ﴿والذاريات﴾ الخ.

(٢) رواه الحافظ البزار.

(٣) وهو قول مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي وقتادة وغيرهم.

من حسنها مرتفعة شفاقة صفيقة، شديدة البناء، متسعة الأرجاء، أنيقة البهاء، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالكواكب الزاهرات. وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلَفٍ﴾ أي إنكم أيها المشركون المكذبون للرسل ﴿لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلَفٍ﴾ مضطرب لا يلتزم ولا يجتمع، وقال قتادة: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلَفٍ﴾ ما بين مصدق بالقرآن ومكذب به ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكْرِ﴾ أي إنما يروج على من هو ضال في نفسه، لأنه قول باطل، ينقاد له ويضل بسببه من هو مأفوك ضال، غير لا فهم له. قال ابن عباس ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكْرِ﴾ يضل عنه من ضل، وقال مجاهد: يؤفن عنه من أفن، وقال الحسن البصري: يصرف عن هذا القرآن من كذب به، وقوله تعالى: ﴿قَتَلَ الْخُرَاصُونَ﴾ قال مجاهد: الكذابون، وهي مثل التي في عبس، ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا اكْتَفَرَ﴾ والخراصون الذين يقولون: لا نبعث ولا يوقنون، وقال ابن عباس: ﴿قَتَلَ الْخُرَاصُونَ﴾ أي لعن المرتابون، وقال قتادة: الخراصون أهل الغرة والظنون، وقوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: في الكفر والشك غافلون لا همون ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ وإنما يقولون هذا تكديباً وعتاداً، وشكاً واستبعاداً قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ قال ابن عباس: يعذبون، وقال مجاهد: كما يفتن الذهب على النار، وقال جماعة آخرون: ﴿يُفْتَنُونَ﴾ يحرقون ﴿ذُوقُوا فَتَنَاتِكُمْ﴾ قال مجاهد: حريقكم، وقال غيره: عذابكم ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُسْتَعْجِلُونَ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً، والله أعلم.

﴿إِنَّ السَّاعِيَةَ فِي جَنَّتٍ وَعَيْونَ﴾ ١٥ ﴿أَيُّونَ مَا مَاءَنَّهُمْ رَبَّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ النَّاسِ﴾ ١٦ ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ النَّاسِ﴾ ١٧ ﴿وَالْأَخْصَارُ هُمْ يَسْتَفْتِرُونَ﴾ ١٨ ﴿وَفِي أَنْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّكِينِ وَاللَّحْرِورِ﴾ ١٩ ﴿وَفِي الْأَرْضِ مَائِدَةٌ لِلشُّوقِيَّةِ﴾ ٢٠ ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ٢١ ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقٌ وَمَا نُرْسُدُونَ﴾ ٢٢ ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ يَتْلُو مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ﴾ ٢٣ ﴿

يقول تعالى مخبراً عن المتقين لله عز وجل، أنهم يوم معادهم يكونون في جنات وعيون، بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال والحريق والأغلال، وقوله تعالى: ﴿أَخْذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾، قال ابن جرير: أي عاملين بما آتاهم الله من الفرائض، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي قبل أن يفرض عليهم الفرائض كانوا محسنين في الأعمال أيضاً، والذي فسره ابن جرير فيه نظر، لأن قوله تبارك وتعالى ﴿أَخْذِينَ﴾ حال من قوله ﴿فِي جَنَاتٍ وَعَيْونَ﴾ فالمتقون في حال كونهم في الجنات والعيون آخذين ما آتاهم ربهم، أي من النعيم والسرور والغبطة. وقوله عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ أي في الدار الدنيا، ﴿مُحْسِنِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾، ثم إنه تعالى بين إحسانهم في العمل فقال جلّ وعلا: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾. اختلف المفسرون في ذلك على قولين: أحدهما: أن «ما» نافية تقديره: كانوا قليلاً من الليل لا يهجعونه. قال ابن عباس: لم تكن تمضي عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئاً، وقال قتادة: قلّ ليلة تأتي عليهم إلا يصلون فيها لله عز وجل، إما من أولها أو من وسطها، وقال مجاهد: قلّ ما يرقدون ليلة حتى الصباح لا يتهجدون، والقول الثاني: أن «ما» مصدرية تقديره: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ونومهم، واختاره ابن جرير، وقال الحسن البصري: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، كابدوا قيام الليل فلا ينامون من الليل إلا أقله، ونشطوا فمدوا إلى السحر حتى كان الاستغفار بسحر، وقال الأحنف بن قيس: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ كانوا لا ينامون إلا قليلاً، ثم يقول: لست من أهل هذه الآية، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال رجل من بني تميم لأبي: يا أبا أسامة صفة لا أجدها فينا ذكر الله تعالى قوماً فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ ونحن والله قليلاً من الليل ما نقوم. فقال له أبي: «طوبى لمن رقد إذا نعى، واتقى الله إذا استيقظ». وقال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه فكنت فيمن انجفل، فلما رأيت وجهه ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما سمعته ﷺ يقول: «يا أيها الناس أطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وأفشوا

السلام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام». وروى الإمام أحمد، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها» فقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: لمن هي يا رسول الله؟ قال ﷺ: «لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وبات لله قائماً والناس نيام»^(١).

وقوله عز وجل: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، قال مجاهد: يصلون، وقال آخرون: قاموا الليل وأخروا الاستغفار إلى الأسحار، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَالْمَسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾، وقد ثبت في الصحاح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فيعطى سؤله؟ حتى يطلع الفجر». وقوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْمَسْأَلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ لما وصفهم بالصلاة، ثنى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة، فقال ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾ أي جزء مقسوم قد أفرزوه للمسائل والمحروم، أما السائل فمعروف وهو الذي يتبدى بالسؤال وله حق، كما قال رسول الله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على فرس»^(٢). وأما المحروم فقال ابن عباس ومجاهد: هو المحارب الذي ليس له في الإسلام سهم، يعني لا سهم له في بيت المال ولا كسب له ولا حرفة يتقوت منها، وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: هو المحارب الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه، وقال الضحاك: هو الذي لا يكون له مال إلا ذهب، قضى الله تعالى له ذلك، وقال ابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء: المحروم المحارب، وقال قتادة والزهري: المحروم الذي لا يسأل الناس شيئاً، وقد قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بالطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمررة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه»^(٣). وقال سعيد بن جبير: هو الذي يجيء وقد قسم المغنم فيرضخ له، وقال الشعبي: أعيانى أن أعلم ما المحروم، واختار ابن جرير أن المحروم الذي لا مال له بأي سبب كان وقد ذهب ماله، سواء كان لا يقدر على الكسب، أو قد هلك ماله بأفة أو نحوها.

وقوله عز وجل: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ أي فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما فيها من صنوف النبات والحيوانات والمهاد، والجبال والقفار والأنهار والبحار، واختلاف السنة والناس وألوانهم، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحكم، في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟ قال قتادة: من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة، ثم قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ يعني المطر ﴿وَمَا تَوَعَّدُونَ﴾ يعني الجنة، قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد، وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾، يقسم تعالى بنفسه الكريمة: أن ما وعدهم به من أمر القيامة، والبعث والجزاء كائن لا محالة، وهو حق لا مرية فيه، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا في نطقكم حين تنطقون، وكان معاذ رضي الله عنه إذا حدث بالشيء يقول لصاحبه إن هذا لحق كما أنك ههنا. وعن الحسن البصري قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا»^(٤).

﴿هَلْ أَلَمْتَ أَنَّى هُوَ رَبُّكَ﴾ (٢٠) ﴿لَا تَدْعُوا عَلَيْهِمْ فَتَكُونُوا كَالَّذِينَ دَعَوْا﴾ (٢١) ﴿لَا تَدْعُوا عَلَيْهِمْ فَتَكُونُوا كَالَّذِينَ دَعَوْا﴾ (٢٢) ﴿لَا تَدْعُوا عَلَيْهِمْ فَتَكُونُوا كَالَّذِينَ دَعَوْا﴾ (٢٣) ﴿لَا تَدْعُوا عَلَيْهِمْ فَتَكُونُوا كَالَّذِينَ دَعَوْا﴾ (٢٤) ﴿لَا تَدْعُوا عَلَيْهِمْ فَتَكُونُوا كَالَّذِينَ دَعَوْا﴾ (٢٥) ﴿لَا تَدْعُوا عَلَيْهِمْ فَتَكُونُوا كَالَّذِينَ دَعَوْا﴾ (٢٦) ﴿لَا تَدْعُوا عَلَيْهِمْ فَتَكُونُوا كَالَّذِينَ دَعَوْا﴾ (٢٧) ﴿لَا تَدْعُوا عَلَيْهِمْ فَتَكُونُوا كَالَّذِينَ دَعَوْا﴾ (٢٨) ﴿لَا تَدْعُوا عَلَيْهِمْ فَتَكُونُوا كَالَّذِينَ دَعَوْا﴾ (٢٩) ﴿لَا تَدْعُوا عَلَيْهِمْ فَتَكُونُوا كَالَّذِينَ دَعَوْا﴾ (٣٠).

(١) أخرجه الإمام أحمد.

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود.

(٣) هذا الحديث أسنده الشيخان من وجه آخر.

(٤) أخرجه ابن جرير عن الحسن مرسلًا.

هذه القصة قد تقدمت في سورة هود والحجر، فقله: ﴿هل أتاك حديث إبراهيم المكرمين﴾ أي الذين أُرصد لهم الكرامة، وقد ذهب الإمام أحمد إلى وجوب الضيافة للنزيل، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل، وقله تعالى: ﴿قالوا سلاماً قال سلام﴾ الرفع أقوى وأثبت من النصب، فردّه أفضل من التسليم، ولهذا قال تعالى: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ فالخليل اختار الأفضل، وقله تعالى: ﴿قوم منكرون﴾ وذلك أن الملائكة، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل، قدموا عليه في صورة شبان حسان عليهم مهابة عظيمة، ولهذا قال ﴿قوم منكرون﴾. وقله عز وجل: ﴿فراغ إلى أهله﴾ أي انسل خفية في سرعة، ﴿فجاء بعجل سمين﴾ أي من خيار ماله، وفي الآية الأخرى: ﴿فما لبث أن جاء بعجل حنيذ﴾ أي مشوي على الرُضف^(١) ﴿فقربه إليهم﴾ أي أدناه منهم، ﴿قال ألا تأكلون؟﴾ تلتطف في العبارة وعرض حسن، وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة، وأتى بأفضل ما وجد من ماله وهو عجلٌ قتيٌّ سمين مشوي، فقربه إليهم لم يضعه وقال اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ﴿ألا تأكلون؟﴾ على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل. وقله تعالى: ﴿فأوجس منهم خيفة﴾ كقوله تعالى: ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة﴾ ﴿قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم﴾ البشارة له بشارة لها، لأن الولد منهما فكل منهما بشر به، وقله تعالى: ﴿فأقبلت امرأته في صرة﴾ أي في صرخة عظيمة ورنه^(٢)، وهي قولها ﴿يا ويلتنا﴾ ﴿فصكت وجهها﴾ أي ضربت بيدها على جبينها، قال ابن عباس: لطمت أي تعجبت، كما تعجب النساء من الأمر الغريب ﴿وقالت عجوز عقيم﴾ أي كيف ألد وأنا عجوز وقد كنت في حال الصبا عقيماً لا أحيل؟ ﴿قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم﴾ أي عليم بما تستحقون من الكرامة، حكيم في أقواله وأفعاله.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣١) ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكُمْ مُّجْرِمِينَ﴾ (٣٢) لِأُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةٌ مِنْ طِينٍ ﴿مُسْوَمَةٌ﴾ (٣٣) عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُفْسِرِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَدَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَرَكَعًا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴿

قال الله تعالى مخبراً عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون؟﴾ أي ما شأنكم، وفيم جنتم؟ ﴿قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ يعنون قوم لوط، ﴿لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة﴾ أي معلمة، ﴿عند ربك للمفسرين﴾ أي مكتتبه عنده بأسمانهم، كل حجر عليه اسم صاحبه، ﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين﴾ وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته ﴿فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾، وقله تعالى: ﴿وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم﴾ أي جعلناها عبرة بما أنزلنا بهم من العذاب والنكال، وجعلنا محلثهم بحيرة منتنة خبيثة، ففي ذلك عبرة للمؤمنين الذين يخافون العذاب الأليم.

﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (٣٨) ﴿فَتَوَلَّىٰ وَرَكَعًا وَيَكْذِبُ. وَقَالَ سَوْجِدُوا لِمُوسَىٰ وَهُوَ مُّبِينٌ﴾ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُ فِي الْيَمِّ ﴿٤٠﴾ ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَدْرُ مِنْ قُوَّةِ أَنْتَ عَلَيْهِمْ إِلَّا جَعَلْتَهُمُ كَالرِّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَمَتَّعُوا عَنْ آمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِفِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمٌ ﴿٤٦﴾ مِنْ قَبْلِ إِيَّاهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴿

يقول تعالى: ﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسُلطان مبين﴾ أي بدليل باهر وحجة قاطعة، ﴿فتولى

(١) الحجارة المحمأة.

(٢) وهو قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك والسدي وغيرهم.

بركنه» أي فأعرض فرعون عما جاءه به موسى من الحق المبين استكباراً وعناداً، قال مجاهد: تعزز بأصحابه، وقال قتادة: غلب عدو الله على قومه، وقال ابن زيد: «فتولى بركنه» أي بجموعه التي معه، ثم قرأ: «لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد» والمعنى الأول قوي، «وقال ساحر أو مجنون» أي لا يخلو أمرك فيما جتنتي به، من أن تكون ساحراً أو مجنوناً، قال الله تعالى: «فأخذناه وجنوده فنبذناهم» أي ألقيناهم «في اليم» وهو البحر، «وهو مليم» أي وهو ملوم جاحد، فاجر معاند. ثم قال عز وجل: «وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم» أي المفسدة التي لا تنتج شيئاً ولهذا قال تعالى: «ما تذر من شيء أنت عليه» أي مما تفسده الريح «إلا جعلته كالرميم» أي كالشيء الهالك البالي، وقد ثبت في الصحيح: «نصرت بالصبا وأهلك عاد بالذبور» «وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين» قال ابن جرير: يعني إلى وقت فناء آجالكم، والظاهر أن هذه كقوله تعالى: «وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون»، وهكذا قال ههنا: «وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين * فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون» وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام فجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار، «فما استطاعوا من قيام» أي من هرب ولا نهوض، «وما كانوا منتصرين» أي لا يقدرن على أن ينتصروا مما هم فيه، وقوله عز وجل: «وقوم نوح من قبل» أي وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء «إنهم كانوا قومًا فاسقين»، وكل هذه القصص قد تقدمت مبسطة في أماكن كثيرة من سور متعددة. والله تعالى أعلم.

﴿وَأَسْمَاءُ بَنِيهَا إِيْتِيَتْ بِوَدَانَ لَمُوسَىٰ ۖ وَوَدَانَ ۖ وَالْأَرْضُ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمَنْ كَفَرَ مِنكُمْ فَتَعَذِّبْهُمُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٤٩﴾ فَاقْرَأْ لِلَّذِينَ لَكُم مِّنْ ذُنُوبٍ نَّذِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْمَلُوا مَعَ الَّذِينَ آخَرُوا إِلَىٰ لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾ .

يقول تعالى منبهاً على خلق العالم العلوي والسفلي: «والسمااء بنيهاها» أي جعلناها سقفاً محفوظاً ربيعاً، «بأيدي» أي بقوة قاله ابن عباس ومجاهد، «وإنا لموسعون» أي قد وسعنا أرجاءها، ورفعناها بغير عمد حتى استقلت كما هي، «والأرض فرشناها» أي جعلناها فراشاً للمخلوقات، «فنعم الماهدون» أي جعلناها مهدياً لأهلها، «ومن كل شيء خلقنا زوجين» أي جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، حتى الحيوانات والنباتات ولهذا قال تعالى: «ولعلكم تذكرون» أي لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له، «فقرؤا إلى الله» أي الجأوا إليه واعتمدوا عليه في أموركم عليه، «إني لكم منه نذير مبين * ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر» أي لا تشركوا به شيئاً «إني لكم منه نذير مبين» .

﴿كَذَٰلِكَ مَا آتَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَآخِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۗ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَٰغَوْنَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُمْ مِمَّا آتَتْ بِمَلَأَةٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَيْنِ نَفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا تَبْلُغُ ذُنُوبَ آصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْمِلُونَ ﴿٥٩﴾ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۖ يَدْعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ .

يقول تعالى مسلماً لنبيه ﷺ: «وكما قال لك هؤلاء المشركون، قال المكذبون الأولون لرسولهم «كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون» قال الله عز وجل: «أتواصوا به»؟ أي أوصى بعضهم بعضاً بهذه المقالة؟ «بل هم قوم طاغون»، أي لكن هم قوم طغاة تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم، قال الله تعالى: «فتول عنهم» أي فأعرض عنهم يا محمد، «فما أنت بلوم» يعني لا نلومك على ذلك، «وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين» أي إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة، ثم قال جل جلاله: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» أي إنما خلقتهم لأمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم، وقال ابن عباس: «إلا ليعبدون» أي إلا ليقروا بعبادتي طوعاً أو كرهاً، وهذا اختيار ابن جرير، وقال ابن جرير: «إلا ليعرفون، وقال الربيع بن أنس إلا للعبادة. وقوله تعالى: «ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون *

إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴿١﴾ ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : أقرأني رسول الله ﷺ : «إني أنا الرزاق ذو القوة المتين»^(١) ، ومعنى الآية أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له ، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء ، ومن عصاه عذبه أشد العذاب ، وأخبر أنه غير محتاج إليهم ، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم ، فهو خالقهم ورازقهم ، وفي الحديث القدسي : «يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك ، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك»^(٢) .

وقد ورد في بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : «ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبنى تجدني ، فإن وجدتنى وجدت كل شيء ، وإن فئتك فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء» . وقوله تعالى : ﴿فإن للذين ظلموا ذنوباً﴾ أي نصيباً من العذاب ، ﴿مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون﴾ ذلك فإنه واقع لا محالة ، ﴿فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون﴾ يعني يوم القيامة .
[آخر تفسير سورة الذاريات ، والله الحمد والمنة]



(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي : حسن صحيح .

(٢) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه ، وقال الترمذي : حسن غريب .